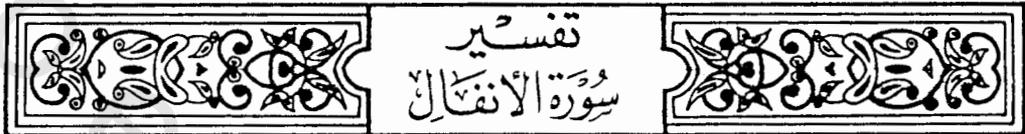


﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢١٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ إنما ذكرهم بهذا ليقنطى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود ههنا، لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأول فالأول، وتراصون في الصف». وهذه أول سجدة في القرآن يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَقْفُوا لِلَّهِ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٦).

الأنفال المغنم. نزلت في بدر، وعن ابن عباس قال: الأنفال الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ﴿فَأَقْفُوا لِلَّهِ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا ولا تخاصموا، ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تحتصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في قسمة نبيكم على ما أَرَادَهُ اللهُ، فإنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢١٧).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ...﴾ عن ابن عباس قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فادوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: زادتهم تصديقاً. وقال مجاهد ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أي فزعت وخافت. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣).

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ينه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أعمال الخير كلها وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فأنفقوا مما رزقكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، أو شكت أن تفارقها.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤).

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال: «يا حارث، عرفت فالزم» ثلاثاً. وقوله ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات. قال الضحاك: أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد، ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليأرهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء».

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (٥).

كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله، فقسمها على العدل والتسوية فكان هذا هو المصلحة التامة، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفيير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز غيرهم فكان عاقبة كراحتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ورشداً، وهدى، ونصراً وفتحاً ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ لطلب المشركين.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٦).

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ أي كراهية للقاء المشركين، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم ﴿بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ لهم أنك لا تعقل إلا ما أمرك الله به.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّرْتُمْ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ

وَدُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧).

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨).

﴿وَوَدُّوا أَن عَدِيَّ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم، وهي العير ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي يريد هو أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفر بهم، وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم.

﴿إِذْ تَسْتَعِيْثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكِيَّةِ مُرْدِفِينَ﴾ (٩).

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيف ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه ازاره ورداؤه، ثم قال: «اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فرداه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﴿إِذْ تَسْتَعِيْثُونَ رَبَّكُمْ...﴾ فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر سبعون رجلاً ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي يردف بعضهم بعضاً متتابعين.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ﴾ (١٠).

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشري ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي بدون ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَنَاءَ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِئُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [عمد: 4] ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بالله ورسوله في الدنيا والآخرة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يُنَشِئُكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ

رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (١١).

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ السَّمَاءِ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: 154] وذلك لتكون قلوبهم مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم، ونعمته عليهم، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في

العريش مع الصديق رضي الله عنه، وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم، ثم استيقظ متبسماً، فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثنياه النقع» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو ﴿سَبِّحْهُمُ لَجْمَعٌ وَيُولُونَ الذُّبُرَ﴾ [الفر: 45] وقوله: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرّب المسلمون، وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرجل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم وقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿وَيُدْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي من وسوسته، أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن ﴿وَلِيُرِيْبَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي بالصبر والاقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن ﴿وَرَبَّيْتِ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر.

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢).

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ...﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين أن يثبتوا المؤمنين، أي قاتلوا معهم، أو كثروا سوادهم ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي ثبتوا أتم المؤمنين، وقوا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك، سألتني الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ...﴾ أي اضربوا الهام فنفقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم. وقوله: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي اضربوا الرؤوس، أو على الأعناق، وهي الرقاب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَرِهَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ (١٣).
أي خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ أي وهو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَرِهَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ (١٣).

هذا خطاب للكفار، أي ذوقوا هذا العذاب، والنكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾ (١٥).
يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾ أي تفروا وتركوا أصحابكم.

﴿وَمَنْ يُؤَلِّمَهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَوْلٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَمَنْ يُؤَلِّمَهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَوْلٍ﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه، فيتبعه، ثم يكر عليه فلا بأس عليه في ذلك. ﴿أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ أي فر من هاهنا إلى فتنة أخرى من المسلمين يعاونهم، ويعاونونه، فيجوز له، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره، أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة، ثم تبنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا قوة، وإلا ذهبنا، فأتيناها قبل صلاة الغداة فخرج فقال: «من القوم»؟ فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «بل أنتم العكارون، أنا فتكم، وأنا فتنة المسلمين» قال: فأتيناها حتى قبلنا يده. وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي رجع ﴿بِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم مياعده ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئْسَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسْبًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ .

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير، لأنه هو الذي وفقهم لذلك، وأعانهم عليه ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ...﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم، وقلة عددكم أي بل هو أظفركم عليهم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: 123] والله سبحانه يعلم أن النصر ليس على كثرة العدد، ولا بلبس الأمة والعدد، وإنما النصر من عند الله ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 249] ولهذا قال ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم، وكتبهم بها، لا أنت. لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه» فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ ﴿وَلِئْسَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسْبًا﴾ أي ليعرف المؤمنون نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب.

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ .

هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، والله الحمد والمآة .

﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ .

يقول تعالى للكفار: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ أي إن تستنصروا وتستقضوا الله، وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتهم، فإن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أقطع للرحم، وأنا بما لا يعرف فأحنه الغداة، وكان ذلك استفتاحاً منه: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدُّ﴾ كقوله ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: 8] معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة، أو وإن تعودوا إلى الاستفتاح نعد إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعُوا مَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به السعائدين له، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أي تركوا طاعته وامثال أوامره، وترك زواجره ﴿وَأَتَّبَعُوا مَا يَسْمَعُونَ﴾ أي بعدما علمتم ما دعاكم إليه.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد المشركون، وقيل: هم المنافقون، فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ أي عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا. ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا، لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَآتَيْنَهُمْ رِزْقًا وَلَوْ اسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿لَآتَيْنَهُمْ﴾ لأفهمهم ﴿و﴾ لكن لا خير فيهم، فلم يفهمهم، لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ اسْمَعَهُمْ﴾ أي أنهمم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ؕ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحَوْلِ
بَيْتِ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ؕ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

قال البخاري: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أجبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يصلحكم، وروى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: 2] هي السبع المثاني. أو ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحَوْلِ بَيْتِ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، أو يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل، أو يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: فقلنا: يا رسول الله، آما بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها» .

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٤٥﴾﴾ .

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة، أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي، ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع. روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهين عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» . وروى الإمام أحمد عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ «إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه» فقلت: وفيهم أهل طاعة الله قال: «نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله» .

﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ
بِنَصْرِهِ ؕ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرتهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم وقرءاءة عالية فزقتهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتلوا أمره، قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ...﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقيماً، ومن مات منهم وري في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما

نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشد منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام، فمكّن به في البلاد، ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

أنزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه، أي أنه الذبيح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذوقاً حتى يموت، أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحلّه منها إلا رسول الله ﷺ فحله، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة فقال: «يجزيك الثلث أن تصدق به» ﴿أَمْنَتِكُمْ﴾ الأعمال التي اتّمتن الله العباد عليها، يعني الفريضة، أو ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بترك سنة، وارتكاب معصية، أو لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا ءَامُولُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿فِتْنَةٌ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونها عليها وتطيعونها فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَأِنَّ ذُوَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿فُرْقَانًا﴾ مخرجاً في الدنيا والآخرة، أو نجاة، أو نصراً، أو فصلاً بين الحق والباطل، ومن اتقى الله بفعل أو امره، وترك زواجه وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه وهو محوها، وغفرها وسترها عن الناس، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليقيدوك، أو ليجسوك، والإثبات هو الحبس والوثاق. اجتمع نفر من قريش من أشرف كل قبيلة ومعهم إبليس على هيئة رجل نجدي لينظروا في شأن رسول الله ﷺ، فقال قائل:

احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما كان قبله من الشعراء، فقال النجدي - إبليس - ما هذا لكم برأي، قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه، فقال النجدي - إبليس - والله ما هذا لكم برأي، فقال أبو جهل لعنه الله، والله لأشيرن عليكم برأي، قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا، وقطعنا عنا أذاه، فقال النجدي - إبليس - هذا هو الرأي، القول ما قال الفتى، لا رأي غيره، فتفرقوا على ذلك وهم مجموعون له، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه، ويتسجى ببرد له أخضر، ففعل، ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم، وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ، وهو يقرأ ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ۝﴾ [يس: 1، 2] - إلى قوله - ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9] وأنزل الله في إرادتهم اخراجه قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء: 76].

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمُنْكَرِينَ﴾ أي فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾.

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم يقولون ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وهذا منهم قول بلا فعل، وإلا فقد تحدوا غير مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله فقد كان ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو جمع أسطورة، أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس، وهذا هو الكذب البحت.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لَقَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾

هذا من كثرة جهلهم، وشدة تكذيبهم، وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيىوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٣).

قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار. روى الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدرکه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه...

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفُونُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٤).

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، وأذن الله في فتح مكة، وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، أي الذين بمكة يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه، والطواف به، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفُونُ﴾ أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهل النبي ﷺ وأصحابه.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢٥).

المكاء الصفير، والتصدية التصفيق، وكانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْفِقُونَ إِنْ تَكُونُوا عَلَيْهِمْ حَسْرَةً تُمْ يَغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٢٦).

لما أصيبت قريش ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بغيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أبي أمية ورجال من قريش أصيب أبائهم وأبنائهم وإخوانهم بيد فكلموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم أنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿هُمْ الْخٰسِرُونَ﴾ وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليرصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله، وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه ومعلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧).

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ ليميز أهل السعادة من أهل الشقاء، أو يميز المؤمن من الكافر ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة كقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَشْرِكُكُمْ وَأَشْرَكُوا بِكُمْ﴾ [يونس: 28] وقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ (١٤) [الروم: 14] وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾ [الروم: 43] وقوله: ﴿وَأَمَّا نَزْوَا الْيَوْمَ أَنبِيَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩) [يس: 59] ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ أي يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه إلى بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَامًا﴾ [النور: 43] أي متراكباً متراكماً ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأُولَى﴾ (٢٨).

يقول الله تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي عما هم فيه من الكفر والعناد والمشاقة، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» وقوله: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ أي يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأُولَى﴾ قال مجاهد: أي في قريش يوم بدر، وغيرها من الأمم.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ﴾ (٢٩).

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ روى البخاري عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿وَإِنِ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...﴾ [الزمر: 9] فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال يا ابن أخي، أعير بهذه الآية، ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبٌ عَلَى اللَّهِ وَعَلَنَةٌ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93] قال: فإن الله يقول ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافق فيما يريد قال: فما قولكم في عثمان؟ قال ابن عمر: أما قولي في عثمان وعلي؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما

علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنته وأشار بيده، وهذه ابنته حيث ترون، وفي رواية أن ابن عمر قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حتى لا يكون شرك ﴿وَيَكُونَ لِلدِّينِ كُلِّهِ لِلَّهِ﴾ أن يقال: لا إله إلا الله فلا يكون مع دينكم كفر. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل» قوله: ﴿فَإِنِ أَنْتَهُوا﴾ بقتالكم عما هم فيه من الكفر، فكفوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: 5] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسماء لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال: لا إله إلا الله فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله فقال لأسماء: «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ فقال: يا رسول الله إنما قالها تعوداً قال: هلا شققت عن قلبه؟» وجعل يقول ويكرر عليه «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» حتى تمنيت أنني لم أكن أسلمت إلا يومئذ.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾.

أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم ﴿نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبَائِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم. والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك كالأموال التي يصلحون عليها، أو يتوفون عنها، ولا إرث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْلَلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 161] وقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ قال بعضهم: لله نصيب يجعل في الكعبة، وقال آخرون: ذكر الله هنا استفتاح كلام للتبرك، فسهم الله وسهم رسوله واحد، ففي الحديث «لله خمسها، وأربعة أخماسها للجيش» وعن أبي بريدة قال: الذي لله فلنبيه، والذي للرسول ﷺ لأزواجه ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ هم بنو هاشم وبنو المطلب، وهذا قول جمهور العلماء، وفي الحديث «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» رواه مسلم، وفي بعض روايات هذا الحديث «إيهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام» ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ أي أيتام المسلمين، واختلف العلماء: هل

يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ هم المحاويع الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر، أو المرید للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك.

﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل الله على رسوله ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي في القسمة ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ﴾ ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل بيدر، ويسمى الفرقان، لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه، ونصر نبيه وحزبه ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٤٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿وَهُمْ﴾ أي المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾. وعن الزبير في هذه الآية قال: لو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم ﴿وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم ففعل ما أراد من ذلك بلطفه، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادْتَ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ وَلَكِنَّا نَنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٤٥﴾.

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تبيئاً لهم، وعن بعضهم أراهم بعينه التي ينام بها، وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام ههنا فلا حاجة إلى التأويل

الذي لا دليل عليه. وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادْتُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ﴾ أي لجبتهم عنهم واختلقتهم فيما بينكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَمٌ﴾ أي من ذلك بأن أراكم قليلاً ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما تجبه الضمائر أو تطوي عليه الأحشاء ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَغْيَىٰ وَمَا تَخْفَىٰ الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19].

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَىٰ اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ [٤٤].

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين فيجروهم عليهم، ويطمعهم فيهم، فعن عبد الله بن مسعود قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. ﴿لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنعمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد إتمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى أنه أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفين كما قال تعالى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الَّذِينَ﴾ [آل عمران: 13] وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منها حق وصدق، والله الحمد والمنة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٤٥] وَأَلْبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرَعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٤٦].

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم». وروى الطبراني مرفوعاً «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف وعند الجنازة». أمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال، ولا ينسوه بل يستعينوا به، ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم به الله تعالى ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم، أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الاقبال ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وقد كان

لصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ، وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب، والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالية والبربر والحبوش وأصناف السودان والقيط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرةم، إنه كريم وهاب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٧﴾﴾ .

يقول تعالى بعد أمره للمؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً، أي دفعاً للحق ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صعرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي عالم بما جاؤوا به، ولهذا جزاهم عليه شر الجزاء.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفُتَيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ .

﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ...﴾ حسن لهم لعنه الله ما جاؤوا له، وما وهموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: إني جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم على صورة سراقه بن مالك سيد بني مدلج ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: 120] فلما التقوا ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ رجع مدبراً، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ .

عن ابن عباس في هذه الآية ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾ لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال

المشركون: غر هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم فظنوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠).

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكراً إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿و﴾ يقولون لهم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عن مجاهد ﴿وَأَدْبُرَهُمْ﴾ أستاذهم. قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: 93].

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٥١).

أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا: جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور، تبارك وتعالى، وتقدس وتنزه الغني الحميد، وفي الحديث الصحيح عن مسلم رحمه الله عن رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيتها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فَرِعُونَ^١ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ سَدِيدٌ الْعِقَابِ﴾ (٥٢).

يقول تعالى: فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكتهم الله، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ سَدِيدٌ الْعِقَابِ﴾ أي لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣).

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [لقمان: 11].

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٦﴾﴾ .

وقوله: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآيات الله أهلكتهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين وما ظلمهم الله بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا، فهم لا يؤمنون.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ...﴾ فكلما عاهدوا عهداً نقضوه وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام.

﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنِ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مَنِ خَلَفَهُمْ﴾ أي نكل بهم، ومعناه غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلهم يحذرون، فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّكَ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةٌ﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من الموائيق والعهود ﴿فَانذِرْهُمْ﴾ أي عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك. أو ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ على مهل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أي ولو حتى في حق الكفار، لا يحبها. روى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أَدعُوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعُوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلکم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

يقول تعالى لنبيه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي فاتونا، فلا تقدر عليهم، بل هم تحت قهر

قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزونا، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: 4].

﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي مهما أمكنكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ روى الإمام أحمد ومسلم رحمهما الله أن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي.

وروى الإمام أحمد وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال: «ارموا، واركبوا، وأن ترموا خير من أن تركبوا» وروى الإمام مالك أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعنى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في حرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرح أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأروائها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تفتياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقاها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء وعلى ذلك وزر». وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر الأهلية فقال: «ما أنزل عليّ فهي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: 7، 8]». وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغرم». وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي تخوفون ﴿بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي من الكفار ﴿وَبِآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ هم المنافقون ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوفى إليكم على تمام الكمال.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أي فمل إليها وابل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخرى. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي صلحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك، وناصرك.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصُورِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي كافيك وحده ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصِرِّهِمْ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ .
﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ

بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾ .

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج وأمور يلزم منها التسلسل في الشر حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضاللاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي»، كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أحق. ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي عزيز الجنب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ .

يحرص الله نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم، وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ أي حسبك الله، وحسب من شهد معك.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي حثهم أو مرهم عليه، ولهذا كان النبي ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بخ، بخ، فقال: «ما يحملك على قولك: بخ بخ» قال: رجاء أن أكون من أهلها قال: «فإنك من أهلها»، فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه. ثم قال تعالى مبشراً المؤمنين، وأمرأ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ...﴾ كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة، وجاء التخفيف.

﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ

وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ يَا ذَنُ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ . . .﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين .

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ تَرْبُودًا عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾ .

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس: إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ، فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾ .

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لهم بالمغفرة في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء . في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة». عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة . وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل بني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي مسلمة بن الأكوع حيث ردهما، وأخذ في مقابلهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء .

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا
أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ
مِنْكُمْ . . .﴾ بعث قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما

رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهره فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك: نوفل وعقيل وحليفك عتبة بن عمر» قال: ما ذلك عندي يا رسول الله، قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني: الفضل وعبد الله وقثم» قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري، وغير أم الفضل، فأحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً، كلهم في يده مال، يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بفعله، حكيم فيه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ .

ذكر الله تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار، وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين إخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال. وقوله: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصركم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق، أي مهادنة إلى مدة فلا تحفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣).

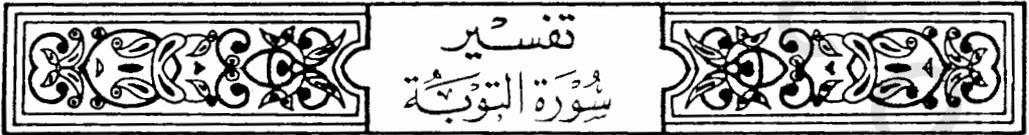
لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاتة بينهم وبين الكفار، فقد روى الحاكم في مستدركه عن النبي ﷺ قال: «ولا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً» ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ...﴾. وفي الصحيحين «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم». وفي المسند والسنن عن رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى». وقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. أي إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤).

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر، أبداً لا ينقطع، ولا ينقضي ولا يسأم، ولا يمل لحسنه وتنوعه.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥).

ذكر في هذه الآية أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة «المرء مع من أحب» وفي الحديث الآخر «من أحب قوماً فهو منهم» وفي رواية «حشر معهم» ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ يشمل جميع القربات، لا ما يطلقه علماء الفرائض على القربات من غير ذوي الفروض والعصبات كما قد يزعمه بعضهم، ويحتج بهذه الآية.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، وإنما لم يبسم في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان